

ذكرى المباهلة في الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة من السنة التاسعة للهجرة: قصّة المباهلة.. وانفتاح الإسلام على الآخر



نستعيد في الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة من السنة التاسعة للهجرة حدثاً مهماً في التاريخ الإسلامي، أظهر مدى انفتاح الإسلام على الديانات السماوية الأخرى، وأسلوبه في التعامل مع من يختلفون معه، وهو اليوم الذي باهل فيه رسول الله (ص) نصارى نجران. ونجران كانت تمثل آنذاك مركز الديانة المسيحية في الجزيرة العربية.

قال اﻟﻤﻮﺗﺎ ﺳﺒﺤﺎﻧﻪ ﻭﺗﻌﺎﻟﻰ ﻓﻲ ﻛﺘﺎﺑﻪ ﺍﻟﻌﺰﻳﺰ: {ﺍﻟﺤﻖ ﻣﻦ ﺭﺑﻚ ﻓﻼ ﺗﻜﻮﻥ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻤﺘﺪﺭﻳﻦ
 * ﻓﻤﻦ ﺣﺎﺟﺖ ﻓﻴﻪ ﻣﻦ ﺑﻌﺪ ﻣﺎ ﺟﺎﺀﻛَ ﻣﻦ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﻓﻘﻞ ﺗﻌﺎﻟﻮﺍ ﻧﺪﻋُ
 ﺍﺑﻨﺎﺀﻧﺎ ﻭﺍﺑﻨﺎﺀﻛﻢ ﻭﻧﺴﺎﺀﻧﺎ ﻭﻧﺴﺎﺀﻛﻢ ﻭﺍﻧﻔﻮﺳﻨﺎ ﻭﺍﻧﻔﻮﺳﻜﻢ ﺋﻢ
 ﻧﺒﺘﻬﻞ ﻓﻨﺠﻌﻞ ﻟﻌﻨﺔ ﺍﻟﻤﻠﺌﺔ ﺍﻟﻜﺎﺫﺑﻴﻦ}. ﺻﺪﻕ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ ﺍﻟﻌﻄﻴﻢ.

ﻧﺴﺘﻌﻴﺪ ﻓﻲ ﺍﻟﺮﺍﺑﻊ ﻭﺍﻟﻌﺸﺮﻳﻦ ﻣﻦ ﺷﻬﺮ ﺫﻯ ﺍﻟﺤﺠﺔ ﻣﻦ ﺍﻟﺴﻨﺔ ﺍﻟﺘﺎﺳﻌﺔ ﻟﻠﻬﺠﺮﺓ ﺣﺪﺋﺎ ﻣﻬﻤﺎ ﻓﻲ ﺍﻟﺘﺎﺭﻳﺦ
 ﺍﻟﻴﺴﻼﻣﻲ، ﺃﻃﻬﺮ ﻣﺪﻯ ﺍﻧﻔﺘﺎﺡ ﺍﻟﻴﺴﻼﻡ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺪﻳﺎﻧﺎﺕ ﺍﻟﺴﻤﺎﻭﻳﺔ ﺍﻻﺧﺮﻯ، ﻭﺍﺳﻠﻮﺑﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﺘﻌﺎﻣﻞ ﻣﻊ ﻣﻦ ﻳﺨﺘﻠﻔﻮﻥ
 ﻣﻌﻪ، ﻭﻫﻮ ﺍﻟﻴﻮﻡ ﺍﻟﺬﻯ ﺑﺎﻫﻞ ﻓﻴﻪ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ) ﻧﺴﺎﺭﻯ ﻧﺠﺮﺍﻥ. ﻭﻧﺠﺮﺍﻥ ﻛﺎﻧﺖ ﺗﻤﺘﻠﻞ ﺁﻧﺬﺍﻙ ﻣﺮﻛﺰ ﺍﻟﺪﻳﺎﻧﺔ
 ﺍﻟﻤﺴﻴﺤﻴﺔ ﻓﻲ ﺍﻟﺠﺰﻳﺮﺓ ﺍﻟﻌﺮﺑﻴﺔ.

ﻭﻧﺤﻦ ﻧﺴﺘﻌﻴﺪ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺬﻛﺮﻯ ﻛﺎﺳﺘﻌﺎﺩﺗﻨﺎ ﻟﻠﻜﻞ ﺫﻛﺮﻳﺎﺗﻨﺎ، ﻟﻨﺎﺧﺪ ﻣﻦ ﻋﺒﺮﻫﺎ ﻭﺩﺭﻭﺳﻬﺎ، ﻭﻟﻨﺼﻮﺏ ﻧﻈﺮﺗﻨﺎ
 ﻭﻣﻮﺍﻗﻨﺎ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻌﻼﻗﺔ ﻣﻊ ﺍﻻﺧﺮ، ﻭﺧﺼﻮﺻﺎ ﻣﻊ ﺍﻫﻞ ﺍﻟﻜﺘﺎﺏ.

ﻧﺴﺎﺭﻯ ﻧﺠﺮﺍﻥ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﺴﺠﺪ

ﻭﻛﺎﻥ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ) ﻗﺪ ﺩﻋﺎ ﺭﺍﺱ ﺍﻟﻜﻨﻴﺴﺔ ﻓﻲ ﻧﺠﺮﺍﻥ، ﺣﺎﺭﺋﺔ ﺑﻦ ﻋﻠﻘﻤﺔ، ﻟﻠﻘﺪﻭﻡ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻤﺪﻳﻨﺔ، ﺍﻟﺘﺰﺍﻣﺎ
 ﺑﻘﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ: {ﻗﻞ ﻳﺎ ﺍﻫﻞ ﺍﻟﻜﺘﺎﺏ ﺗﻌﺎﻟﻮﺍ ﺇﻟﻰ ﻛﻠﻤﺔ ﺳﻮﺍﺀ ﺑﻴﺪﻧﺪﺍ
 ﻭﺑﻴﺪﻧﻜﻢ ﺍﺳﻼ ﻧﻌﻮﺩﻯ ﺇﺳﻼ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ ﻭﻻ ﻧﺸﺮﻙ ﺑﻪ ﺷﻴﺌﺎ ﻭﻻ ﻳﺘﺨﺬﻯ ﺑﻌﻮﺿﻨﺎ
 ﺑﻌﻮﺿﺎ ﺍﺭﺑﺎﺏﺎ ﻣﻦ ﺩﻭﻥ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ}.

ﻳﻮﻣﻬﺎ، ﺍﺳﺘﺠﺎﺏ ﺍﺳﻘﻒ ﻧﺠﺮﺍﻥ ﻟﺪﻋﻮﺓ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ)، ﻭﺍﺭﺳﻞ ﻭﻓﺪﺍ ﻣﻮﻟﺪﻓﺎ ﻣﻦ ﺳﺘﻴﻦ ﺷﺨﺼﺎ ﻣﻦ ﻛﺒﺎﺭ ﺭﺟﺎﻻﺕ
 ﺍﻟﻜﻨﻴﺴﺔ، ﻓﺎﺳﺘﻘﺒﻠﻬﻢ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ) ﻓﻲ ﻣﺴﺠﺪﻩ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﺪﻳﻨﺔ ﺍﻟﻤﻨﻮﺭﺓ ﺗﻜﺮﻳﻤﺎ ﻟﻬﻢ، ﻭﻫﻮ ﻣﺎ ﻳﻌﺰﺯﺭ ﺍﻟﺮﺍﻯ
 ﺍﻟﻔﻘﻬﻲ ﺍﻟﺬﻯ ﻳﻘﻮﻝ ﺃﻥ ﻻ ﻣﺎﻧﻊ ﻣﻦ ﺩﺧﻮﻝ ﺍﻫﻞ ﺍﻟﻜﺘﺎﺏ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻤﺴﺎﺟﺪ.

ﻭﻗﺪ ﺳﻤﺢ ﻟﻬﻢ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ) ﺁﻧﺬﺍﻙ ﺑﺎﻟﺘﻌﺒﻴﺮ ﻋﻦ ﻗﻨﺎﻋﺎﺗﻬﻢ ﻭﻋﻤﺎ ﻳﻮﻣﻨﻮﻥ، ﻓﻠﻢ ﻳﻤﺎﻧﻊ ﺃﻥ ﻳﺪﺧﻠﻮﺍ
 ﺍﻟﻤﺴﺠﺪ ﻭﻫﻢ ﻳﺤﻤﻠﻮﻥ ﺍﻟﻤﻠﺒﺎﻥ ﻓﻲ ﺍﻏﻨﺎﻗﻬﻢ، ﻭﺃﻥ ﻳﺪﻗﻮﺍ ﺍﻟﻨﻮﺍﻗﻴﺲ ﻓﻴﻪ، ﻋﻠﻤﺎ ﺃﻥ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ) ﻛﺎﻥ
 ﺁﻧﺬﺍﻙ ﻓﻲ ﻣﻮﻗﻊ ﺍﻟﺴﻠﻄﺔ ﻭﺍﻟﻘﻮﻩ، ﻭﻟﻮ ﺷﺎﺀ ﺃﻥ ﻳﻔﺮﺿَ ﺃﻣﺮﺍ ﻟﺤﺼﻞ.

ﺍﻟﺤﻮﺍﺭ ﺑﻴﻦ ﺍﻟﻄﺮﻓﻴﻦ

ﻭﻗﺪ ﺟﺮﻯ ﻟﻘﺎﺀ ﺣﻮﺍﺭﻱ ﺑﻴﻦ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ (ﻣ) ﻭﻧﺴﺎﺭﻯ ﻧﺠﺮﺍﻥ، ﺣﻀﺮﻩ ﺣﺸﺪ ﻛﺒﻴﺮ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﺴﻠﻤﻴﻦ، ﺍﺑﺘﺪﺍﻩ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎ

(ص) بالإشارة إلى أن ما جاء به لم يأت من فراغ، بل يندرج في سلسلة الرسلات السماوية. وفي ذلك، قوله عز وجل: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِمَا وَصَّلَتْهُ وَكُتِبَتْ عَلَيْهِ وَأَرْسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}، وأن مثله ومثّل الأنبياء من قبله كمثّل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون بالبيت ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: "فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".

وفي صفات الأنبياء، أسهب رسول الله (ص)، فأوضح أن الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى الناس ليلبّغوا رسالة ربهم، هم بشر لهم كلّ صفات البشرية، ولكن ما يميّزهم ويكرمهم، هو أنّه يوحى إليهم. وهذا ما ينطبق على السيّد المسيح (ع)، فالسيد المسيح عبد الله ورسوله، وهو الذي قال: {قَالَ إِنْ زَيْ عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جِدًّا شَرِيفًا}.. {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُفَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرُوا كَيْفَ نُبَيِّينُ لَهُمْ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ}، هنا تدخل رئيس وفد نصارى نجران قائلاً: لكنّه ابن الله، وإذا لم يكن ابن الله فهو ابن من؟ فتلا النبيّ (ص) قوله تعالى: {إِنَّ زَيْمًا أَلْمَسَ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}.

هو قدرة الله تجلّت في ولادته، وقد أوجده من أمّ دون أب، ومثله مثل آدم: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. فلو أن ولادته من دون أب تستوجب أن يكون ابناً لله، فأدم أولى بذلك، لأنّه خلق من دون أب وأمّ.

رسول أم إله؟!

عندها قال رئيس الوفد: إذا كنت تقول عن السيّد المسيح إنّه عبد الله، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بأمر الله، ولكن ألم يكن يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وينبئ الناس بما يأكلون ويدخرون، فهل يستطيع أن يفعل ذلك إلا من تجلّت فيه صفات الألوهيّة؟

فقال رسول الله (ص) إنّ ما جرى من السيد المسيح هو معجز، شأنه في ذلك شأن الأنبياء، يظهرها الله على

أَيَّدِي أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ، حَتَّى يُؤْمِنَ النَّاسُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُوهُمْ وَيَتَّقُوا بِأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهِيَ لَيْسَتْ تَعْبِيرًا عَنْ قُدْرَاتِ شَخْصِيَّةٍ، بَلْ هِيَ قُدْرَةُ اللَّهِ الَّتِي يَجْرِيهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ. وَقَدْ حَرَصَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى فِي حَدِيثِهِ عَنْ مَعْجَزَاتِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ (ع) أَنْ يَذْكَرَ أَنَّهَا كَانَتْ بِإِذْنِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَرَسُولًا إِلَيْنَا بِرَبِّنَا إِنْ كُنَّا مُنْزِلِينَ} أَيْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْزَلْنَاهُ أَنْزِلًا لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُفْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

الدعوة إلى المباهلة

وطال النقاش، واستمرَّ الحوار، ووفد نصارى نجران يسأل عمًّا يجيش في صدره، والرَّسول (ص) يقدِّم لهم البراهين الدالَّة والشَّواهد الثَّابتة، حتى بان أخيراً أن لا أحد في الوفد يريد أن يقرَّ بالحقيقة التي دعا إليها رسول الله (ص)، وقد لا يكون ذلك لعدم إيمانهم بما قاله (ص) لهم، بل لصعوبة تغيير ما كانوا عليه وألفوه وبنوا حياتهم عليه.

بعدهما رأى رسول الله (ص) عدم رغبتهم بالانصياع له، دعاهم إلى ما دعاه الله إليه، وهو المباهلة. والمباهلة تعني أن يجتمع الفريقان المختلفان، فيضرع كلٌّ منهما إلى الله لكي يميز الصادق من الكاذب.

وهذا ما نزلت به الآية الكريمة على رسول الله (ص): {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَزْوَاجُنَا وَأَزْوَاجَكُمْ ثُمَّ نَيْتِهْلُلْ فَندْجِعْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}.

وفوجئ نصارى نجران بطلب رسول الله (ص)، إذ لم يكن في حسابهم أن يخضعوا لهذا الامتحان، ولكن ما كان من خيار لهم إلا أن يوافقوا، لذا قالوا: أنصَفْتِ يا أبا القاسم، فإنَّ المباهلة آية معجَّلة بيننا وبينك.

وانفضَّ الاجتماع، وذهب وفد نجران يتفكَّرون بما يصنعون، فقال رئيس الوفد: قد جاءكم الرّجل بالفصل من أمره وأمركم، فانظروا بمن يباهلكم، فإن يباهلكم بالكثرة وذوى الشدَّة، وهذا صنع الملوك،

بأهلنا، وإن أتانا بنفري قليلٍ من صحابته، أو من أهل بيته خاصّة كما هي سجيّةُ الأنبياء، فلا نُباهله، فإنّه لا يقدرُ أهل بيته وكبار صحابته إلا وهو صادق، وهذه لكم أمانة.

وفي الصباح، وبينما كانت الجموع تصطفّ، إذ بصوت يرتفع بالتّكبير، وإذا برسول الله (ص) قد قدم إلى المباهلة وهو يحتضن الحسين (ع)، وأخذاً بيد الحسن (ع)، وخلفه عليّ بن أبي طالب (ع) وفاطمة (ع)، وهؤلاء كانوا يمثّلونه في ما أشارت إليه آية المباهلة، فالحفيدان السبطان الحسن والحسين (ع) أشارت إليهما الآية بـ(أبناءنا)، وفاطمة (ع) أشارت إليها الآية بـ(نساءنا)، وعليّ (ع) بـ(أنفسنا).

تقدّم النبي (ص) إلى حيث نصارى نجران، وهو يقول لهم: "إذا دعوتُ فأمرّنّوا"، ثم يرفع يَدَيْه نحو السماء، ويدعو الله سبحانه قائلاً: "اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي".

لما رأى نصارى نجران أنّ هؤلاء الأربعة وحدهم ممن سيباهلُ بهم الرّسول (ص)، وهم من أهل بيته، أشار إليهم رئيسهم: والله إنّني لأرّى وجوهاً لو سألوها ربّهم أن يُزيل الجبلَ عن مكانه لأجابهم وأزّله، فلا تباهلوهم.

وقرّروا أن لا يدخلوا في المباهلة، واتفقوا مع رسول الله (ص) على أن يبقوا على ما هم عليه، وعلى تنظيم العلاقة بينهم وبين الدولة الإسلامية، وجرى الاتفاق بينهم وبين رسول الله (ص) على أن يضمن لهم حرية المعتقد والعبادة من دون تعدّ أو ظلم، فلا يتدخل في شؤونهم، ولا يفرض عليهم دينه، على أن ينضوا تحت لواء الدولة الإسلاميّة، ويدفعوا الجزية التي هي ضريبة عليهم في مقابل الخمس والزكاة التي يدفعها المسلمون.

ماذا نستفيد من الحدث؟!

لقد جاءت هذه الحادثة لتثبت مسألتين؛ أولاً، طبيعة العلاقة التي يجب أن تحكم المسلمين بالمسيحيين، وهي علاقة بناها الإسلام على المودّة، عندما قال: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْقرَ بَهِمٍ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}، وعلى الاحترام المتبادل، وعلى عدم الإكراه، فلا إكراه في الدين.

ولتثير، ثانياً، إلى أنّ المباهلة - بمقاصدها - يمكن اعتمادها كأسلوب في العلاقة بين المختلفين عندما لا يصل الحوار بينهم إلى نتيجة، ويبقى كلّ على موقفه، فيوكل الأمر عند ذلك إلى الله. وهو

أسلوب يساعد على التخفيف من التوتر، مع تأكيد القواسم المشتركة والعمل بموجبها، ويترك حلّ الخلاف إلى الله، وهو ما قاله سبحانه: {إِلَّاهِي أَمَرَ جَعُوكُمْ جَمِيعاً فَيُذَبِّذُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}.

وأخيراً، فإنّ الحادثة أمّلت موقع أهل البيت عند رسول الله (ص)، فقد بيّنت أنّ الحسن والحسين (ع) هما ابنا رسول الله، في مقابل من كان يقول إنّ أبناء البنت ليسوا أبناءه، وأنّ الزهراء (ع) في شخصها هي سيّدة نساء العالمين، وأنّ عليّاً (ع) هو نفس رسول الله، وأنّه المعبر عنه (ص)، وهم الذين نزلت فيهم الآية: {إِنَّ زَمْزَمَآ يَرْيَدُ أَلَيْذُ هَبْ عَنكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}.

جعلنا الله من المهتدين بنهج رسول الله، ومن السائرين على هدى خطّ أهل البيت وخطّ المتطهّرين بطهرهم.

اعداد وتدوين

علي اكبر بامشاد